أغنية الدير

للكاتب الأنجليزى وليام كانتون

ترجمة الأستاذ كامل محمود حبيب

هبط جون أوف فولد إلى هيثهولم - لأول مرة - رئيساً للدير هناك وفى صحبته شتى المؤلفات النادرة الأنيقة فى الفلسفة والدين والأدب ، مغلفة فى جلد ثمين موشى بالذهب والفضة ثم الملابس الغالية الطريفة من الحرير والمخمل ؛ وعباءات من الكتان الجميل ، دقيقة الصنع ، وقلانس محلاة بالعسجد . أشياء تنبىء عن نعمة وترف...

وراح القس الجديد ينفث من روحه التواقة الصافية فى جنبات الدير ، فوضع فى نوافذ الناحية الغربية التى يسكنها هو أصصا من البلور بها طاقات من شتى ألوان الزهور الناضرة . وزين حجرة سانت إيجون بالأصص المرصعة باليواقيت ، فيها فنون وفنون من الزهر الصناعى ؛ وفى سماء الحجرة طير من لجين تبدو كأنها محلقة فى سماء الأرض تهفو نحو هذه الطاقات وتحوم حولها ؛ ثم أمر فصففت المناضد والكراسى الخشبية الجميلة فى حديقة الدير ليجلس عليها الموسيقيون كل صباح وكل مساء ، يعزفون ويرتلون الأناشيد الدينية الشجية ...

لقد كان الأب جون يفور نشاطا وقوة ، فى روحه الصفاء والجمال ، وفى قلبه الإيمان واليقين ؛ فأراد أن يبعث فى الدير روح الجنة ليستروح هو وإخوانه من الرهبان نسمات الخلد فى هذه الناحية النائية من الأرض ...

وبدا هذا الدير غيره جمالا وروعة وبهاء

* * *

وكان الأب توماس وكيل الرئيس يرى ما يفعله الأب جون وفى قلبه الاضطراب والأسى ، وفى نفسه الغيظ والحنق؛ وكان يجلس إلى نفسه بين الحين والحين يحدثها : «حقاً ، إن هذه الأشياء لا تعنى الرب ، وهى تبعث فى العين السرور والبهجة ،

دراسة عميقة . ومن رأيه أن الشركات التمثيلية المصرية ستبلغ أعلى مستوى وأن أهل الاسكندرية أقل اهتماما بالروايات التمثيلية من أهل القاهرة

قال : وقد شهدنا فى أثناء مقامنا فى مصر التمثيل فى المسارح العربية ورأينا فيها حركة نشيطة جدا . وقد طلب إلينا أن نقبل عددا من الطلبة المصريين فى دبلن ولكنهم ليسوا متضلعين فى اللغة الانجليزية ، فمتى جاؤا فستتاح لهم الفرصة لتعلمها ودراسة الطرق المسرحية فى وقت واحد

تأبين الرافعى فى طنطا

تألفت بطنطا لجنة من بعض المحامين والأطباء والعلماء وأعضاء مجلسى النواب والشيوخ ومن الأعيان والتجار لتأبين فقيد الأدب الكبير المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وسيعلن فيما بعد عن ميعاد الحفلة ومكانها

وقد قررت اللجنة ألا يتعدى التابين الموضوعات الآتية :

(١) الرافعى : تاريخه وحياة الوظيفة (٢) الرافعى الشاعر (٣) الرافعى الأديب (٤) الرافعى المؤلف (٥) فلسفة الرافعى

وترجو اللجنة حضرات الأدباء والشعراء ممن يرغبون فى الاشتراك فيها بأعمالهم أن يخابروا سكرتيرها ، ويتفضلوا بارسال خطبهم وأشعارهم إليه لعرضها على اللجنة وإقرارها

أمين حافظ شرف

طنطا — شارع الشيخة صباح القديم

وتدخل إلى القلب اللذة والطرب ، وتنفث فى الحياة المتعة والجمال ! ماذا تفيد هذه الكنوز الغالية ، والطرف الجميلة ، والآثار النادرة ؛ وهى تجذب القلب عن العبادة ، وتورث فى النفس حب الحياة وحب الاستمتاع ؟ ما للراهب ولهذه الأشياء وهو يريد وجه ربه مخلصاً له ؟ هذا بعض عبث الشيوخ وحرفهم حين يسيطرون على بيوت الله ، يجمعون شتى الطيبات ، وألوان الملذات ، فتلهيهم عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ وعن أناس يبيتون فى العراء حفاة عراة ، ويتضورون جوعاً ، لايجدون مأوى ، ولايجدون كساء ولا طعاماً . ليت هذا الشيخ الغفل ينظر بعينى القس الورع إلى مايقاسيه الفقراء وذوو الحاجة فيخفف من غلوائه ، وينزع عنه بعض حماقاته ! ... »

وفى الحق لم يكن توماس ليستشعر فى نفسه الأسى والألم لما يقاسيه بعض الناس من فاقة وعوز ، ولم تكن فى قلبه الرحمة والشفقة ؛ ولكنه كان يحس ألم الحقد والحسد يتنزى فى صدره كلما وقعت عينه على ما انتثر هنا وهناك فى نواحى الدير منذ هبط الكاهن الأعظم جون

لقد كان توماس على غير ما كان عليه رفاقه : كان رجلا فيه الكآبة والعبوس ، فكان الرهبان والقسس يعبدون الله مخلصين وفى قلوبهم الطرب والسرور . وفى قلبه هو التجهم والحقد ؛ وفى أرواحهم اللذة والقناعة ، وفى روحه هو الجفاف والغلظة ؛ وفى أنفسهم الرضا والاطمئنان ، وفى نفسه القلقل والاضطراب . ثم هم يرون فى أرض الله مسرحاً للعين والقلب والنفس جميعاً ، وهو فى منأى عنهم قد شغلته فكرة تضطرب فى رأسه

* * *

واعتاد الأب توماس أن يدلف إلى المعبد كل مساء وفى يده مصباحه ، وقد أرخى الليل أستاره ، ونامت الحياة فى كل حى ، يتهجد ويتعبد ، ساجداً راكعاً ، قارئاً مرتلا ؛ يناجى ربه فى هدأة الليل وسكونه ، يسأله ويستغفره ، فما يبرح حتى تخونه قوته ، ويهن عزمه ، وتضطرب مفاصله ، من أثر الاندفاع والبرد فى وقت معاً ؛ فيرتد إلى حجرته يتكفأ فى طريقه...

وانطلق - ذات مرة - إلى حيث ينطلق كل ليلة ، وقد تأججت فى نفسه ثورة الحقد على رئيسه جياشة مضطرمة ، تكاد تعصف بإيمانه وعقيدته ... انطلق والبرد يزلزل أعصابه ويتغلغل فى أوصاله وهو فى طريقه لايتململ ولا يعبأ ... وسجد فى محرابه ... غير أن صوتاً موسيقياً عذباً هادئاً رن فى مسمعيه فنزعه من أخيلته ، فأنصت يتسمع ... ثم استوى جالساً ، وحدق فيما حوله يريد أن يستشف أمراً ، وبدت عليه الدهشة حين رأى ضوءاً خافتاً يضطرب فى أرجاء الدير يزداد سطوعه رويداً رويداً ، وتعلو معه نغمات الموسيقى فتزداد حلاوة ووضوحاً

ورنت الموسيقى الإلهية فى جنبات المعبد ، وارتفعت الأصوات الملائكية تنشد نشيداً عذباً يرقق القلب ، ويبعث فيه الروعة والجلال . وخيل إليه أن الرسوم والأحجار والسقف والحوائط و ... جميعا ترددهذا النشيد فى رنات سماوية ، وأحس بالناى الإلهى تحت ركبتيه تنبعث منه أهازيج يطرب لها الفؤاد ، وتهتز النفس ،

واستولت على الراهب الحيرة فما استطاع ان يبرح مكانه ... ثم أرهف سمعه فاذا الصوت ينبعث من ناحية المحراب أولا ثم يمسك ، فيندفع كل ماحوله يرتلون الأنشودة فى صوت فيه السحر والجمال ، وترتفع رنات الموسيقا لتزيد النشيد طلاوة وحلاوة ، وبدا له المكان يهتز طرباً كأنه يرقص مع النغم الشجى المنبعث من هنا ومن هناك

وتراءت له صور الملائك تضطرب فى هذا الضوء الإلهى الساطع ، وفى أيديهم المعازف ، وخيل إليه أن هذه الأشباح رسوم صورها له خياله فحسب ، فانتفض من مكانه يحدق ذات اليمين وذات الشمال ، ويتحسس بيديه نواحى المكان ، وحين بدا له أن ما يرى حقاً لامرية فيه ، اضطرب ، وزالت عنه شجاعته ، وجمد فى مكانه وقد سيطر عليه الفزع والخوف ، غير أن صوتاً لذيذاً رن فى مسمعيه يطمئن نفسه :

نحن الملائك نبتهل إليك يارب
نحن الملائك نبتهل إليك يارب

وأجال بصره فرأى على جانبى المحراب ملكين يترنمان :

على مر الأيام والليالى ونحن نسبح بحمدك يارب

ونقدس اسمك العظيم يارب ، مادام هذا الكون اللانهائى .

ومن بين شفتيها يتصاعد النفس فينعقد سحباً كثيفة بيضاء فى أعلى المكان . فاستشعر فى نفسه الخور والضعف غير أن حب الاستطلاع دفعه إلى المحراب ليرى ..

واستطاع أن يرى رسوم الملائك والملوك على أستار المعبد تردد هى أيضا هذه الأغنية

والصور على زجاج النوافذ ترتل هى أيضا الأغنية

ورؤوس الملائكة المنحوتة فى رخام المعبد ترتل الأغنية

والأسد والدواب المرسومة هنا وهاهنا ترتل هى الأخرى الأغنية

وتماثيل القديسين المنثورة فى نواحي المكان ترتل هى أيضا الأغنية .

والرسوم على الجدران ترتل أيضا الأغنية

وبدا له أن كلمات هذه الأغنية قد رسمت بحروف من ذهب يتوهج فيخطف البصر . على دروع الملوك والأمراء وذوى الجاه فى سقف المعبد ؛ والجميع يهزجون ويهتزون من فرح ومن سرور كأنهم أحياء . وتصاعدت أنفاسهم إلى سماء المعبد ، سحبا تغطى السقف وتحيط بالأعمدة ، ثم أمسك الجميع سوى رنات الناقوس العظيم فى أعلى المحراب

وملأ مسمعي توماس صوت يردد الأغنية خارج المعبد فى نبرات أخاذة شجية ، يخترق سكون الليل وظلامه ليستقر فى أذنيه هو . إنه ... إنه منبعث من حجرة التماثيل ، حيث الملوك والملكات ، حيث الأمراء والعظماء ، حيث الكهنة والشهداء ، حيث القسس والرهبان ؛ قد صففت تماثيلهم الفضية والبرنزية والرخامية والحجرية . لقد أجابوا جميعاً دعوة الداعي فانطلقوا يترنمون بالأغنية الالهية فى طرب ولذة ... وهدأت الموسيقى خارج المعبد لتبدأ مرة أخرى داخله ، ثم ... ثم اندفعوا جميعاً بصوت فيه العذوبة والحلاوة يرددون :

على مر الأيام والليالى ونحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يارب ؛ مادام هذا الكون اللانهائى

واصطرعت فى رأس توماس أفكار متناقضة فما استطاع سوى أن يرفع عقيرته :

يا إلهى ، فليشملنا عفوك وغفرانك ؛

فليشملنا عفوك وغفرانك يا إلهى !

ثم تراخت قوته فانطرح على الأرض ذاهلا ...

* * *

وأفاق فما وجد إلا الظلام يشمل الأرض ، وإلا السكون يسيطر على الكون ، وإلا مصباحه الضئيل يضطرب فى ناحية من المعبد ... فارتد إلى حجرته وقد آلمه ما نازعته إليه نفسه من حقد على عبد من عباد الله الصالحين ، حباه الله بفضل من لدنه . فبذل فضل جهده فى العناية بمخلوقاته الخرساء الصماء ، وفى تنسيق قطعة من أرض الله لتكون جنة الله على أرضه ، ونزع ما فى صدره من غل ، فأيقن أنه إن لها الإنسان عن ذكر ربه فى الكون مخلوقات ماتفتأ تردد مادامت السموات والأرض :

... نحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يا رب ؛ ما دام هذا الكون اللانهائى

كامل محمود حبيب

فى مدينة الأسكندرية

قلم حبر الكتابة «سفنكس»

الأنيق ذو الريشة الذهبية

تجده فى مكتبة الاتحاد

بأول شارع فرنسا بالقرب من ميدان محمد على

٢٠ ، ٤٠ صـ

بدلا من ٤٠ ، ٨٠ قرشا تباع فى السوق